

نوافير البيت الدمشقي

الفنّانة والمهندسة السورية تالين هزبر في معرض للفنّسقية الشامية

يتناول معرض "بنى مؤقّنة" للفنّانة والمهندسة المعمارية تالين هزبر دور الطبيعة والهندسة المعمارية في نقل ملامح التراث الثقافي، من خلال التركيز على تأثير استخدام النوافير، والمعروفة باسم "البحرّة"، التي تتوسط ساحات البيوت السورية التقليدية. المعرض افتتح أخيراً في إطار "معرض 421" الذي يسلم الضوء على الإبداعات الفنية الإقليمية من كافة أنحاء المنطقة.



محمد الحماصي
كاتب مصري

وتلفت تالين هزبر إلى "أن الهندسة المعمارية تشكل جانباً من جوانب الحياة الحديثة التي نشهدها، لذلك من المهم التعرف على كيفية تفاعل الأشخاص مع الأعمال الفنية التي تحمل طابعاً هندسياً في محيطهم، وهذا ما حرصت على تقديمه من خلال بنى مؤقّنة، وأتطلع إلى أن يلامس العمل جوانب من الحياة العصرية التي يعيشها زوار المعرض". وتتناول أعمال تالين هزبر مفاهيم الاستكشاف وفهم الطبيعة والمادة والحالة المؤقّنة. وقد أبدعت أعمالاً فنية وأجساماً ومواداً عابرة ومؤقّنة تعزز أهمية التصميم في النظم الطبيعية، وتحديها بها مفاهيم تراكم المادة واندثارها، وذلك بهدف إحياء النماذج القائمة على الطبيعة وفهم العلاقة التي تجمع الطبيعة وفنون الهندسة المعمارية.

وتعمل هزبر عبر مختلف التخصصات الفنية والعمارة، وترتبط أعمالها ارتباطاً وثيقاً بالمناظر الطبيعية المحيطة بها وبنيتها المتشابكة والمعقدة. وتبرز فيها أهمية العمل داخل النظم الطبيعية، وتجريب المواد لفهم السلوك والخصائص، واستدعاء الهياكل الطبيعية المبنية، ودراسة خواص المواد المترابطة، وقد تنوعت طريقة عرض الجدران بين أنماط منعزلة وأخرى متصلة ببعضها، في إشارة تسلط الضوء على العلاقة التي تجمعها بالبيئات المحيطة والسياق الاجتماعي الذي يدور حولها.

يشكل المعرض مفهوم البحرّة، والتي تعد نافورة مياه عادة ما تتوسط ساحة البيت السوري التقليدي، حيث يركز على الناحية الجمالية للبحرّة والعلاقات الاجتماعية التي تتشكل في البيئة المحيطة بها. كما يسعى لفهم الارتباط بين التراكيب المعمارية للبحرّة والسياق والطقوس التي تدور حولها، والمستوحاة من التقاليد الثقافية والاجتماعية والدينية.

وقد تم تصميم المعرض من الأبعاد الأربعة التي تتشكل منها النافورة وتوزيعها في المحيط من أجل دراستها كقطع منفصلة، ومنح الزوار فرصة اختبار ما توجبه هذه التراكيب الفنية غير المترابطة. وقد تنوعت طريقة عرض الجدران بين أنماط منعزلة وأخرى متصلة ببعضها، في إشارة تسلط الضوء على العلاقة التي تجمعها بالبيئات المحيطة والسياق الاجتماعي الذي يدور حولها.

كانت البحرّة شاهداً ووصياً
ومرآة تعكس السماء في
وسط الفناء، إنها ذاك الهيكل
الصامت، الصخب والمليء
بالحياة، هيكل متركز ومنعزل،
يستمد الحياة من الماء المسير
في مدار

وأكد فيصل الحسن، مدير "معرض 421" أن جمهور معرض "بنى مؤقّنة" يختبر تفاصيل البيت السوري التقليدي، وما يتضمنه من سياق اجتماعي وثقافي ترويه البحرّة. ويعكس تصميمها الساكن والمياه المناسبة بشكل مستمر فيها حالة متباينة تخاطب خيال واحساس المهتمين بفنون التصميم المعماري في المنطقة. كما يتميز بتركيزه على مفهوم الحالة الاجتماعية التي تنشأ حول البحرّة المزخرفة، والتي تطرح تساؤلات حول الهوية السورية والشرق أوسطية أمام جمهور المعرض.

تتخلق رؤية تالين هزبر من تلك الكلمات التي افتتحت بها الكتيب الذي صاحب افتتاح المعرض: عبر زقاق ضيق وإلى فناء واسع ذي أقواس فسيفسائية الأرضية على أرضيات من رخام، صوت مياه متدفق يسمع، ورائحة الياسمين المغلفة داخل الصحن تشير إلى أجواء فردوسية دنيوية. ففي صحن البيت، الأرضية على شكل حصى حجرية ذات تشكيلات فسيفسائية هندسية كبيرة من الحجر البازلتية والأحمر والجيري الأبيض أو من قطع الرخام المشقق الملون بأشكال هندسية من الرخام الأبيض والأحمر والأسود.

مساحة للظل والراحة، مساحة للجمع والعزلة. مساحة للتسامح والاحتفال والهمس. مساحة لكسر الخبز. مساحة لاحتساء القهوة والشاي. مساحة للجلوس حول بركة الماء.

وفي بيتها حول انطلاق المعرض، رأت أن عملها يقدم الفرصة لدراسة مفهوم البحرّة، والذي يثير العديد من الأسئلة التي تتعلق بالجوانب الاجتماعية والثقافية والدينية للهوية السورية، ويساعد على دراسة وفهم تلك الجوانب بعيداً عن الضوضاء والكتابات، ومن خلال نافورة المياه التي عادة ما تتوسط ساحة البيت السوري التقليدي. كما يركز على الروابط بين التراكيب المعمارية للبحرّة وبين حياة الأشخاص في منطقة الشرق الأوسط التي تجمع بين الماضي والحاضر.

تقول "تعد البحرّة نافورة الماء مركز البيت السوري التقليدي ونقطة محورية للتفاعلات الاجتماعية. أصبحت البحرّة أكثر شيوعاً في سوريا مع نمو القوة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولة. لم تكن نوافير المياه مجرد قوالب خرسانية مغطاة بالبلاط أو الحجر حاوية للماء، بل كانت لها أهمية مادية وحسية. وعلاوة على كونها هيكلاً هندسياً يضيف لمسة فنية على الفناء الداخلي، كانت البحرّة مصدرًا للمياه الشرب ومكاناً للغسل والوضوء. كما كانت وسيلة لتلطيف أجواء الطقس".

وتضيف "كان من أهم ما تضيفه البحرّة للبيت العربي صوت الماء المتدفق منها، ولصوت الماء في الفناء مزاجياً كثيرة من أهمها عزل وتشديد الصوت والأصوات بداخل البيت العربي للحفاظ على خصوصيته، ما يضيف إحساساً بالهدوء والطمانينة لما لصوت الماء من تأثير إيجابي. أيضاً كانت البحرّة شاهداً ووصياً ومرآة تعكس السماء في وسط الفناء. إنها ذاك الهيكل الصامت، المفضل، الصخب والمليء بالحياة، هيكل متركز ومنعزل، يستمد الحياة من الماء المسير في مدار".

وتوضح هزبر "بدلاً من دراسة البحرّة كهيكل مركزي يتناول عملي مفهوم البحرّة بأجزاء من أشكال النماذج التقليدية. يتكون العمل من أربعة أرباع. كل ربع هو جزء مقطعي من تصميم البحرّة التقليدية في ساحات البيوت السورية. يسمع لكل مقطع من كل بحرّة بإعادة الاتصال وتشكيل علاقات جديدة معزولة عن بيئاتها الطبيعية. يتم تقديم أقسام

التشكيل الجانبي في مادة واحدة من لون واحد للتركيز على أنظمة المياه وأسطح المواد والأشكال الهندسية للبحرّة، وبوحدة هذه العوامل نستطيع أن نلقي نظرة على الماء كمادة ذات وزن وتأثير على بيئتها المحيطة. وهكذا فإن العمل يبحث في اللحظات المؤقّنة للتراث الثقافي البشري وبيئته".

وتأمل هزبر من عملها "في فنائها" أن يساعد على استحضار الذكريات واختبار مدى إمكانية أجزاء ومقاطع لفهم العلاقة بين المادة والمحيط، وتقول "لمثل هذا الهيكل مقدرة على المكوّن لاكتضاح حركة المياه السلسة داخل تكويناته، فيسمح للمياه بالتدفق داخل نظمه لخلق الهدوء الشبه المؤقّت".

وكون هزبر تدعم أعمالها ببحوث مكثفة في السياقات الاجتماعية والتاريخية التي تتناول هذه العلاقة، فقد استشارت 11 مختصاً لتقديم للجمهور فهماً غنياً وواسعاً عن مفهوم البحرّة. وقد سجلت في كتيب صاحب افتتاح المعرض مجموعة الأفكار والمساهمات التي قدمها هؤلاء ومن بينهم فنانون وأكاديميون وسوريون من تخصصات مختلفة حول البحرّة، والتي هي جزء من مشروع مستمر يركز على الأهمية المعمارية والثقافية للنوافير في المنازل السورية التقليدية، وذلك سعياً لجمع الخبرات والقصص والأفكار حول الهياكل المائية حول الأبنية.

يقول الفنان السوري عدنان سمان الذي عرضت أعماله في معارض هامة حول العالم إن "النافورة، أو البحرّة كما يسميها أهل سوريا، وعلى مدار قرون كانت ركناً أساسياً من أركان المنازل الشامية، وخاصة في سوريا، فهي مرآة بصرية وسمعية لتدفق الحياة في المنزل. تتجمع حولها العائلات والأصدقاء، ويستخدمونها للوضوء والاعتسال وتبريد الفواكه. كما بقيت مصدر إلهام لأهل البيت على الدوام، لن تجد منزلاً ولو كان مهجوراً ليست به تلك النافورة أو ما يرمز لها".



شاعرية البيت الدمشقي لا تكتمل إلا بـ«البحرّة» ذات النوافير

في فندق في باب توما أثناء التحضير لزيّاف صديق لي. قامت أسرة العريس وأصدقائه بحجز الفندق بأكمله، كان فندقاً صغيراً ذا أرضية من بلاط ملون، وإيوان صيف وفناء خلّاب تتوسطه نافورة بحرّة تحيط بها نباتات متنوعة. وفي صباح يوم الزفاف، دارت كل أنشطة اليوم حول البحرّة. قدمت وجبة الفطور على أنغام فيروز، واستمرت أجواء البهجة بينما كنا نستعد للعرس. كان حدثاً مميزاً مليئاً بالسعادة والسلام".

لم تكن نوافير المياه مجرد قوالب خرسانية مغطاة بالبلاط أو الحجر حاوية للماء، بل كانت لها أهمية مادية وحسية وعلاوة على كونها هيكلاً هندسياً يضيف لمسة فنية على فناء البيت الدمشقي

وتقول المهندسة المعمارية جودي محفوظ "كانت حلب ذات يوم مركزاً للتجارة الدولية، وأدت الوفرة في الموارد الموجودة في ذلك الوقت إلى نشأة البيوت العربية الفسجية في حي الجديدة. هذه القصور التجارية التي قام المسلمون والمسيحيون ببنائها على نفس النمط وبفلسف المستوي هي دلائل على المنزلة والرخاء والذوق والتعاضد. احتوت هذه القصور على صحنون رائعة، وأواوين مقببة أو قاعات مفتوحة توجد بها الواح خشبية مطلية بشكل معقد ومبهر على الجدران والسقوف المزينة بالورود والنقوش العربية. ومن ضمن هذه البيوت هناك أو كانت هناك: بيت باسل، بيت دلال، بيت أجقباش وبيت الوكيل".

النص كاملاً على الموقع الإلكتروني

ويرى الفنان والمخرج السينمائي ولأعب الكرة السابق عمار البيك "أن البحرّة الدمشقية، بحر حوله جزيرة، وعلى هذه الجزيرة بإسمية معرشة، وشجرة نارنج، وشجرة تين، وشجرة كباد، وشجرة ليمون، وشجرة بوملي، ودالية، والكثير الكثير من شتلات الجوري. بيت جدتي فاطمة عبداللطيف القحف هو عبارة عن جزيرة فيها بحرّة مثمّنة الأضلاع، رخامها تلفه عروق مسطوفة بنض الدمشقيين ومياه عين الفيجة التي عمدت أرواحهم. على سطح جزيرتنا تلك هناك طائرة المنزل، غرفة شراكنا أنا وانتصار أبو الذهب، أمي، التي تخبى غسيليها هناك من زخات المطر وتحط عليها طيور التسعة والتمسحون. كانت بعض الطيور تسترق السمع والشرب من على صحن النافورة الرخامي للبحرّة في منتصف البيت، الطباشيري والحلي والمطوق وحتى اليهودي أسماء طيبوري. كانت تغافل قانون المستويات في البيت وتهبط من أعلى نقطة، من طائرة السطح لأغزرت نقطة، منبع الحياة والجمال، أعلى رأس النافورة المصنوع من نحاس".

ويذكر البيك "بحرنتنا المثمّنة الأضلاع، وإحدى منابع حريتنا، كانت ضلعا في صدر كل أهل البيت، في باب السلام داخل سور دمشق القديمة، فقط أربعون من الأمتار كانت المسافة الفاصلة بين أهل البيت وباب السلام، وكان القدر قدر الطفولة والحياة أن تكون البحرّة ملقني هذه العائلة وعلى مقربة من باب السلام الروماني العمارة ربما. بحرنتنا، بحرنتنا المصغر، وملتقانا الهندسي، والعقلي، والروحي المنتسح في جمال العبارة التي كانت مصدراً روحياً لبث الطاقة، في الليل عندما يخلد الجميع لغرفهم، يعطي صوت النافورة لنجوم السماء بعداً أرضياً سماوياً فتانا، ومازال الصوت يسكنني ومازالت الأضلاع المثمّنة مركز جاذبتي تجاه دمشق سحر الجمال، بيت طفولتي ومدرستي".

وتحكي الباحثة في الدراسات المدنية ديماء ديوب "قضيت ثلاثة أيام

وتقول المهندسة المعمارية جودي محفوظ "كانت حلب ذات يوم مركزاً للتجارة الدولية، وأدت الوفرة في الموارد الموجودة في ذلك الوقت إلى نشأة البيوت العربية الفسجية في حي الجديدة. هذه القصور التجارية التي قام المسلمون والمسيحيون ببنائها على نفس النمط وبفلسف المستوي هي دلائل على المنزلة والرخاء والذوق والتعاضد. احتوت هذه القصور على صحنون رائعة، وأواوين مقببة أو قاعات مفتوحة توجد بها الواح خشبية مطلية بشكل معقد ومبهر على الجدران والسقوف المزينة بالورود والنقوش العربية. ومن ضمن هذه البيوت هناك أو كانت هناك: بيت باسل، بيت دلال، بيت أجقباش وبيت الوكيل".

النص كاملاً على الموقع الإلكتروني